



الفصل الثاني

مثالية فشته

- تمهيد
- حياته وأعماله
- فشته والفلسفة الكانطية
- مبدأ الذاتية



obeikan.com

تمهيد

تولى "فشتته" بعد "كانط" قيادة الفكر الفلسفى الألماني ، ومضى به قدماً إلى أوج عظمته ، فحقق ما تنبأ به "شلنج" حين صرح بأن "فشتته" سيحمل الفلسفة إلى ارتفاع شاهق يجعل معظم رجالنا من أتباع "كانط" يشعرون بشيء من الدوار ، ولذا كانت مهمة "فشتته" صعبة وشاقة وهى بسط المذهب "الكانطى" وإصلاح أمره . لقد أنفق نشاطه الفكرى فى فترة شهدت حدوث تغيرات بعيدة المدى فى الشعب الألماني ، وهى تغيرات أدت فيها "فشتته" دوراً تاريخياً حاسماً . ولا خلاف فى أن آرائه تعد منفعة عملية فوق قيمتها الفلسفية ، إنها تبين لنا - فى جلاء ووضوح - الاتصال بين فكر الفيلسوف وبين روح العصر . كتب يقول :

"إن كل ما هو عظيم وكل ما هو حسن وجميل - فى عصرنا هذا - يرجع كله إلى أن رجال الماضى النبلاء الأقوياء قد ضحوا من أجل المبادئ والأفكار بجميع مباحج الحياة" (1) .

وإذا تأملنا فلسفة "فشتته" سنجد أنها تحمل طابع "المثالية" فى نظرية الوجود ، وتمتاز - هذه المثالية - بقولها بأن مبدأ الوجود واحد . وهذا الواحد هو "الأنا" أو العقل وليس خارجه شىء . حقاً لقد قال "اسبينوزا" بالواحدية ، أى أرجع كل الوجود إلى مبدأ واحد ، هو الذى أسماه "الجوهر" ولكنه فهم الجوهر بمعنى "الموضوع" لا "الذات" . أما عند "فشتته" فإن الواحد هو "الذات" ومن هنا سميت مثاليته باسم "المثالية الذاتية" لربطها بما ذهب إليه "كانط" فى المعرفة المتعالية التى لو استخلصت نتائجها من ناحية المذهب فى الوجود ، لأمكن أن تؤدى إلى هذه "المثالية الذاتية" (2)

حياته وأعماله

ولد "فنشته" فى 19 مايو عام 1762 فى "رامناو" Ramenau ، أظهر منذ نعومة أظفاره نبوغاً كبيراً مما دعا أحد الأثرياء بتكفل نفقات تعليمه . وابتداء من هذه اللحظة بدأ "فنشته" يستعد لتعليم عال فدرس فى مدرسة "مايس" ثم فى مدرسة "شوليفورتا" ، وكانت هذه الأخيرة أقرب إلى المدارس الدينية .

عاصر "فنشته" المعركة اللاهوتية التى قادها "لسنج" حيث نهل من الفلسفة والإلهيات ما استطاع فى "بيننا" . وفى أثناء دراسته فى "كونجسبرج" اطلع على فلسفة "كانط" فأصدر كتاباً بعنوان "بحث نقدى لكل وحى" ، أراد أن يكون تطبيقاً لمذهب "كانط" فى "الدين" . ونشر بعد ذلك كتاباً بعنوان "تصحيح آراء الجمهور عن الثورة الفرنسية" ، رحب به المفكرون الألمان ترحيباً وثيراً .

ولما ذاع اسمه عرضت عليه جامعة "بيننا" كرسى الفلسفة فيها عام 1794 ، ومن "بيننا" أخذت آراؤه فى الذبوع : قبلها "شلمنج" و"ريتهولد" و"شليجل" ، وكتب إليه "جوته" منوهاً بنظريته فى المعرفة . وفى هذه المرحلة من حياته العقلية أصدر كتاباً بعنوان "أساس نظرية العلم" عام 1794 ، ثم نقحه ونشره بعنوان "المدخل الأول لنظرية العلم" عام 1797 ، وهذا الكتاب أفضل ما يعبر عن نظريته فى المعرفة . وبسط "فنشته" نظريته فى الحقوق ومذهبه فى الأخلاق فى كتابيه "الحق الطبيعى" عام 1796 و"الأخلاق" 1798⁽³⁾ .

لقى مذهب "فنشته" الكثير من المعارضات ، وولد العديد من العداوات الشخصية وغير الشخصية . ومن هنا قامت المشاكل والمنازعات بينه وبين سائر الكُتّاب والمفكرين ، لكنه تصدى لهم جميعاً ، وأتهم بالإلحاد وتدخلت السلطات ، ووجه الاتهام إليه بأنه يعمل على تقويض دعائم الشعائر الدينية . وعندما صدر الحكم ضده ، أراد تبديد هذه التهمة فأضطر – كما قال – للخضوع للسلطة . فمرت هذه العاصفة ،

ولكن كان لها تأثير كبير في نفسه فيما بعد . ثم ثارت المشكلة الكبرى المسماة باسم "مشكلة الإلحاد الكبرى" عام 1799 ، صدر الحكم بإدانتته رسمياً واضطر بعدها إلى مغادرة "بيننا" . وذهب إلى "برلين" عام 1800 وكانت الحرب بين بروسيا ونابليون وبدأت الحركات الوطنية في بروسيا من أجل طرد نابليون من ألمانيا . ولعب "فشتته" في هذه المعركة الوطنية دوراً خطيراً . بدأ يوجه خطاباً إلى الأمة الألمانية ، ستصبح فيما بعد من المؤلفات المشهورة له ، واستمر في هذا الكفاح حتى انتصرت ألمانيا عام 1813 . ثم توفي "فشتته" في 27 يناير عام 1814⁽⁴⁾ .

فشته والفلسفة الكانطية

ظهر "فشته" الشاب على مسرح الفلسفة ، وأبدى حماسه فى عرض الفلسفة النقدية ، معلناً أن العناية الإلهية قد نذبتة لتنفيذ وصية "كانط" الفلسفية ، كتب فى عام 1797 (فى المقدمة الأولى لكتابه "نظرية العلم") يقول :

"إن مؤلف (نظرية العلم) اقتنع بعد معرفة عاجلة للأدب الفلسفى الذى ظهر فى أعقاب كتب (كانط) ، أن الهدف الذى قصد إليه ذلك الرجل العظيم من إحداث انقلاب تام فى آراء العصر عن الفلسفة وعن العلوم كلها ، قد أخطق فى تحقيقه إخفاقاً تاماً ؛ وأن أحداً من الفلاسفة العديدين الذين جاءوا بعده لم يفهم مقصوده فهماً دقيقاً" (5) .

قرر "فشته" أن يجعل حياته وفقاً على بسط ذلك الكشف العظيم الذى أتيج لذلك المفكر ، ولكن فى صورة مستقلة تمام الاستقلال عن الصورة التى عرضها "كانط" ، يقول :

"لقد قلت مراراً وأكرر القول أن مذهبى ليس شيئاً آخر غير مذهب (كانط) ، أعنى أنه يعبر عن وجهة النظر نفسها ، وإن كان فى سيره مستقلاً تماماً الاستقلال عن عرض (كانط) لمذهبه . ولم أقل هذا لأتستر وراء شخصية كبيرة ، أو لكى أجد لمذهبى سنداً خارجة ، وإنما أقول هذا إقراراً للحق وإنصافاً للحقيقة" (6) .

من هذا يتبين ، أن "فشته" كان يؤمن ويقرر صراحة أن مذهب هو مذهب "كانط" ، ولكن كما فهمه هو ، وفهمه له هو الفهم الحقيقى الذى يتفق مع الهدف الأسمى الذى استهدفه "كانط" من فلسفته . ولكن هل مذهب "فشته" هو مجرد عرض واضح لحقيقة مذهب "كانط" ؟

استوقف نظر الباحثين المعاصرين الذين سعوا إلى فهم الفلسفة الكانطية
أمران :

الأول : انعدام الوحدة فى المذهب ، ووجود مبادئ عديدة متعارضة ؛
واستوقفهم - بوجه خاص - تلك الثنائية بين عالم الظواهر وعالم الأشياء فى ذاتها
أى بين "الحساسة" التى تزود الذهن بمقولات الزمان والمكان ، وبين الفكر الذى له
نشاط صورى بحت ، خال من كل فحوى .

الأمر الثانى : الفصل بين صورة المعرفة ومادتها ، أى افتراض "الشيء فى ذاته"
افتراض حقيقة لا تنال فى ذاتها ، هى علة لأحوال حساسيتنا وعماد لحدوسنا الحسى (7).

من هذا المنطلق نرى ، أن مذهب "فشتته" محاولة جريئة لإعادة تلك
المتافيزيقا التى سعى "كانط" طوال حياته إلى هدمها . أننا نجد خلافاً بينهما فى
نواحى عديدة - فمن حيث نقطة الابتداء - نجد "فشتته" يؤكد وجود مبدأ واحد مطلق
هو الأساس لمادة المعرفة وشكلها ويعتمد فى بسط هذا المبدأ على منهج الاستنباط
القبلى .

من هنا ، يدعى "فشتته" أنه يستطيع أن يبنى العالم كله استنباطاً من مبدأ
واحد مطلق ، على عكس ما ذهب إليه "كانط".

إن "كانط" يبدأ من معطيات واقعية للشعور وليس من مبدأ واحد مطلق ،
ولئن كانت هذه المعطيات ليست تجريبية عرضية ، فإنها معطيات ضرورية كلية
تؤلف الطابع العام لكل أنواع الشعور . ثم يرتفع "كانط" من هذه المعطيات عن طريق
التحليل إلى مبادئ تفسيرها . ولم يستطع "كانط" أن يؤكد لنا هل هذه المبادئ عديدة
مستقلة أو يمكن ردها إلى الوحدة ؟ هل هى نسبية أو يمكن الوصول إلى مبدأ مطلق ؟
لكن "كانط" ينتهى من تحليل تلك المعطيات الضرورية إلى القول باستحالة الصعود
إلى مبدأ واحد مطلق للأشياء ، وينتهى إلى القول بضرورة التوقف عند عدد متكرر من
المبادئ لا يمكن ردها إلى أبسط منها .

مبدأ الذاتية

نظرية العلم

كيف يمكن أن تكون الفلسفة علماً ؟

نظر "كانط" إلى الفلسفة على أساس أن واجبها هو الوصول إلى كل محكم الأجزاء لا يقبل أى تغرات ، ولا أية زعزعة . ومن أجل بيان مهمة الفلسفة كتب رسالة عنوانها : "حول فكرة مذهب العلم أو الفلسفة" فإذا كان على الفلسفة أن تصبح علماً يقينياً لا يقبل الجدل أو المعارضة ، فينبغى عليها أن تحل كل ألوان التناقض والتعارض بين المذاهب الفلسفية . وعند هذه النقطة بدأت الفلسفة النقدية عند "كانط" .

لكن التعارض لم يُحل – من وجهة نظر "فشته" – إلا بعلم يجعل الترابط بين القضايا محكماً ، ويؤلف كلاً يقينياً ثابت اليقين . إن طابع العلم هو اليقين الشامل المنتظم فى كل أجزائه ، وتبعاً لهذا يقتضى العلم الارتباط المحكم الواحد بين جميع المبادئ والقضايا . ولن يكون ثمة علم بدون وحدة "المبدأ الأساسى" أى وحدة المطلق⁽⁸⁾ .

ويقوم تأسيس العلم عند "فشته" على أمرين :

الأول : المبدأ الأساسى ، وهو الذى تتوقف عليه سائر المبادئ .

الثانى : مذهب العلم أى ارتباط المبادئ بعضها ببعض ارتباطاً ضرورياً محكماً يقينياً يستمد ارتباطه وإحكامه ويقينه من يقين المبدأ الأساسى .

إذن فمذهب العلم عند "فشته" هو العلم الباحث فى إمكان العلم بوجه عام ، وبذلك هذا المذهب لن تقوم الفلسفة بوصفها علماً واضحاً بيناً .

ومذهب العلم يقوم على مبادئ رئيسية :

(1) مبدأ أساسى مطلق

(2)، (3) مبدأن نسبيا أولان أساسيان .

والمبدأ الأول الأساسى المطلق لا يمكن إلا أن يكون واحداً فحسب والمبدأن النسبيان يتحدد أحدهما عن طريق المحتوى ، والآخر عن طريق الشكل فحسب .

الأنا أو الذات

يقول "فشته" :

"تأمل فى نفسك ، وأصرف نظرك عن كل ما يحيط بك إلى باطنك ، هذا هو
المطلب الأول الذى تقتضيه الفلسفة من مريديها . الأمر لا يتعلق بشيء خارج
عنك ، بل يتعلق بك أنت وحدك ."

المبدأ الأول الذى يجب أن يشرع منه المذهب فى نظر "فشته" هو "الأنا" أو الوعى
الإنسانى . وبهذا المبدأ رد "فشته" جميع ضروب التعارض التى لم تجد حلالها فى
المذهب "الكانطى" . ولقد استوحى فكرة مبدئه الأول من القانون الأخلاقى الذى يعتبر
"الالتزام" القضية الأساسية التى يمكن بها إثبات الوجود . والحق أن نقطة انطلاق
"فشته" ليست من نظرية المعرفة ، بل من نظرية الأخلاق . فـ "الأنا" يصنع نفسه ، لكنه
لا يصنع نفسه فحسب ، بل يصنع "اللا - أنا" بوصفه عالم التجربة الذى يتضمن ذوات
أخرى . وهنا تمر "الأنا" أو "الذات" بثلاث خطوات لكى تدرك نفسها⁽⁹⁾ :

التقرير

الذى يعد شرط "الأنا" الأساسى أن تقر وجودها ، وهو ما يسمى بـ "مبدأ
الذاتية" أى "أنا تساوى أنا" أو "أنا هو أنا" .

التباين

ومعناه لا يمكن أن تقر الأنا ذاتها إلا إذا قررت إلى جانبها "اللا-أنا" أو
"اللاذات" .

التأليف

ويعنى التوحيد بين "الأنا" و "اللا-أنا" بتحديد متبادل كليهما للآخر.

وهذه الخطوات الثلاث تمر بها "الأنا" ، ففي البداية تتضمن كل ما أعرف وما أتبين وما أجرب . وهذا الفعل الأول من أفعال "الأنا" متى أفصح عنه ، كان متضمناً للمراحل الثلاث فى الجدل : الموضوع ونقيض الموضوع ومركب الإثنين (الموضوع والنقيض).

ففى المرحلة الأولى ، تضع "الأنا" ذاتها أى تؤكد نفسها وتصرح بوجود ذاتها على أنها الفعل الذى به تملك ذاتها على نحو خلاق ، دون أن تكون هناك ذات تفترض متقدمة عليها . وفى المرحلة الثانية ، تكون هناك "لا-أنا" مقابلة "للأنا" . المرحلة الثالثة ، يكون تأكيد لحد "الأنا" و "اللا - أنا" أى أن "الأنا" و "اللا - أنا" يتحددان بشكل متبادل على أنهما نتيجة لهذه الحركة الموصلة من "الأنا" إلى "اللا - أنا" وإلى "الوحدة بينهما" .

إن "الأنا" متى أكدت ذاتها إنما تتميز عن موضوع هو غيرها، وهى حين تصنع ذاتها تصنع "مقابلها" أو حدها (العالم الموضوعى). وهذا العالم الموضوعى ليس عقبة تلتقى بها "الأنا" فى سبيلها ، وإنما هو حد "تعطيه الأنا لنفسها" . إذن فوجود "الغير" ضرورى لتأكيد وضع "الأنا" (10).

مراجعة الفصل الثاني من الباب الرابع

(1) نقلاً عن د. عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص276.
انظر أيضاً :

Godfrey Vesey, Idealism Past and Present, Cambridge university Press , London New York , 1982 , p. 113.

(2) د. عبد الرحمن بدوى ، المثالية الألمانية (شلنج) ، دار النهضة العربية ، 1965 ،
من مقدمة الكتاب.

(3) د. عثمان أمين ، المرجع السابق ، ص278.
انظر أيضاً :

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p.544.
قارن كذلك :

Fichte Johann Gottlieb , Early Philosophical Writings, Translated and edited by Daniel Breazeale , London : Cornell University Press , 1988 .

(4) د. عبد الرحمن بدوى ، المرجع السابق ، ص12.

(5) نقلاً عن د. عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص282.
أيضاً :

Patrick I, Gardiner, Nineteenth Century Philosophy, The Free Press , New York, Collier-Macmillan, Limited, London, 1970,

p. 18.

(6) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوي ، المثالية الألمانية (شلنج) ، ص15.

قارن كذلك :

Fichte , Foundations Transcendental Philosophy , Translated and edited by Daniel Brazeale , London : Cornell University Press , 1992 .

(7) د. عثمان أمين ، المرجع السابق ، ص284.

(8) د. عبد الرحمن بدوي ، المرجع السابق ، ص21.

قارن كذلك :

Neuhausser , Frederick , Fichte's Theory of subjectivity , New York , Cambridge University Press , 1990 .

(9) د. حسن حنفي ، فيشته فيلسوف المقاومة ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2002 ، ص132.

أنظر أيضاً :

Fichte , Science of Knowledge : with The First and Second Introductions Translated and edited by peter Heath John Lachs, Cambridge University press , 1982 .

(10) د. عثمان أمين ، رواد المثالية في الفلسفة الغربية ، ص291.
